دراسات

عن مقدمة ابن خلدون

ألفه أبو خلدون ساطع الحصري

طبعة موسعة صفحاتها (٨ + ٦٥٦ + أربع لوحات اضافية) (١)

منذ عشرة أعوام نشر العالم الاجتماعي ساطع الحصري كتاباً عنوانه « دراسات عن ابن خلدون » يقع في جزأين صدرا في بيروت عام ١٩٤٣ و ١٩٤٤ . ونظراً لأحوال الحرب السائدة يومذاك ولبعد الأستاذ ساطع الحصري عن مكتبته التي كانت في العراق فقد اكتفى بأن يدوّن في ذينك الجزأين خلاصة آرائه مستعيناً بذاكرته الجبارة وبمراجعة مقدمة ابن خلدون من جديد . ومع ذلك كله فقد جاءت تلك الدراسات أوفى ما كتب على ابن خلدون من ناحية عرض الموضوع ومن حيث مقارنة آراء ابن خلدون بآراء علماء التاريخ والاجتماع من الغربيين .

وكان الأستاذ الحصري يتمنّى النفس بأن تنتهي الحرب العالمية الثانية ويجمع الله شمله بمكتبته الثمينة وبأوراقه التي دوّن فيها ملاحظاته وأثبت عليها موازناته وقيد شوارد أفكاره . وحقق الله أمنية الأستاذ الحصري ولكن الأيام شغلته عما كان قد عزم عليه ، فان البلاد العربية أرادت أن تستفيد من خبرته الطويلة في التربية والتعليم فكان مستشاراً للمعارف في الجمهورية السورية ثم مستشاراً ثقافياً في جامعة الدول العربية فأدى من المنصبين خدمات جليلة لأمته ولبلاده ،

(١) نشره السيد محمد ناجي الحضيري ببغداد ، وطبعته دار المعارف بمصر ١٩٥٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكن لم يستطع أن يوفر وقته على استتمام البحث في مقدمة ابن خلدون . غير أنه استطاع أن يوسع دراسته الأولى فجعلها ستمائة وأربعاً وستين صفحة . بعد أن كانت نحو خمسمائة . هذا بالاضافة الى أربع لوحات تمثل اثنتان منها رسمين خياليين لابن خلدون وتمثل اثنتان أخريان مشاهد من بيئة ابن خلدون (بيته وبناء مدرسته) .

على أن هذه الدراسات لا تزال في رأي الأستاذ ساطع الحصري نفسه غير وافية بمراده ، كما أن شواهدها من المراجع الأجنبية لا تزال تحتاج الى توسيع في بعض نواحيها والى تقييدها بأرقام صفحات الكتب في بعض نواحيها الأخرى . وكذلك كان الأستاذ الحصري يأمل أن تنتهي الحرب العالمية الثانية فيتاح له أن يطلع على مخطوطة قيل إنها محفوظة في تونس . ولقد سافر الأستاذ ساطع الحصري الى تونس عام ١٩٤٥ ولكنه لم يعثر على تلك المخطوطة المرجوة فلم يكن له بد بعد ذلك من أن يوسع « دراساته عن ابن خلدون » على منهاجه القديم ، ومع هذا فقد قطع الطريق على كل باحث جديد في مقدمة ابن خلدون . ولن يتاح لأحد أن يزيد شيئاً على ما جاء به الأستاذ الحصري في هذا الموضوع الا اذا وقع على مخطوطة جديدة لمقدمة ابن خلدون .

* * *

يمس الأستاذ ساطع الحصري في توطئة دراساته (ص ١ — ٩) نقطتين مهمتين جداً في تأريخ العلم ، إذ يرى أن العلماء عادة يشركون أقوامهم في بعض أخطائهم الشائعة . غير انه يدافع عن العلماء ، كلهم لا عن ابن خلدون وحده ، فيقول : « ان أصول البحوث العلمية تتطلب من كل باحث يُقدم على مطالعة كتاب قديم أن يتأمل في مواضيعه ... وأن يعرف حق المعرفة بأن خطورة الأخطاء التي تلفى [1] في الكتب القديمة لا يجوز أن توزن بالمقاييس

(١) في الأصل تلقى (بالقاف) وهو خطأ مطبعي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الفكرية العصرية ، بل يجب أن تقدر بموازين تاريخية خاصة .... وهذه الموازين الخاصة لا يمكن أن تتقرر الا بتتبع الفكر البشري بوجه عام» . من أجل ذلك لا ينكر الأستاذ الحصري أن يكون ابن خلدون قد أخطأ في بعض ما كتب كما أخطأ أرسطو وسوى أرسطو . على أن ابن خلدون قد عرى في آرائه عن السفسطات التي أتى بها أرسطو نفسه .

أما النقطة القيمة الثانية فهي اننا نحن العرب نطلع عادة على كل ما كتب أسلافنا ، الغث منه والسمين ، فنرى دائماً المآخذ عليهم ، بينما الغربيون لا يقدمون الى جمهور قرائهم الا المقتطفات . فاذا نحن رأينا تلك المقتطفات المختارة ظننا ان المفكرين الغربيين لا سقطات لهم البتة .

بمثل هذه الروح يتقدم الأستاذ الحصري الى مقدمة ابن خلدون بالدراسة فيتناولها من ست زوايا .

١ً — المدخل الاول : على هامش المقدمة :

يقول الأستاذ الحصري إن المؤرخين الغربيين كلهم اهتموا بالخرافات ودونوا أقوال الكهان منذ أقدم الأزمان . حتى هيرودوت اليوناني « أبو التاريخ » فعل ذلك ثم سار على آثاره مؤرخو الرومان الى القرن السابع للميلاد . وكذلك القول بتأثير النجوم في الحوادث وفي أعمال البشر سيطر في أوروبة على أذهان العوام والمفكرين على السواء حتى القرن السابع عشر . ولعل أبرز الأمثلة على التصديق بالتنجيم ماجاء في مؤلفات المؤرخ المفكر المشهور جان بودَن J. Bodin المتوفى في آخر القرن السادس عشر (١٥٩٤) . هذا المؤرخ يعد في آباء فلسفة التاريخ ويقال عنه أنه أول من ألقى نظرة فلسفية الى التاريخ من بين الفرنسيين - ان بودن هذا قد قال في كتابه « الجمهورية » : لا يوجد شخص ذو عقل سليم لا يعترف بتأثير الأجرام السماوية في الحوادث الطبيعية والبشرية . ثم هو يمضي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في تعليل جميع حوادث التاريخ الكبرى على أساس التنجيم والتنبؤ بالنظر الى جميع حوادث التاريخ الكبرى على أساس التنجيم والتنبؤ بالنظر الى النجوم . «ان العرب مثلاً ، لما حدث القران [1] العظيم سنة ٦٣٠ م ، نشروا دين محمد وثاروا (كذا) ضد أباطرة القسطنطينية وغيروا الدول واللغات والأخلاق والدين (ص ٢٣ — ٣٠) .

وكذلك ظل المؤرخون والمفكرون الأوروبيون حتى منتصف القرن الثامن عشر يعتقدون بالسحر ويضعون أصول المحاكمات التي يحكمون بموجبها على السحرة . ولم يتأخر بودن نفسه عن أن يقول ان الموسيقى تطرد الشياطين (ص ٣١ — ٣٤) . ولقد ظل المؤرخون الأوروبيون الى أوائل القرن التاسع عشر يعللون التاريخ تعليلاً دينياً ويرفضون فيه مقام العقل .

أما ابن خلدون الذي عاش في القرن الثامن للهجرة (والرابع عشر للميلاد) فلم يمزج وقائع التاريخ بأخبار الكهانة كما فعل «أبو التاريخ» هيرودوت ، ولا هو حاول تفسير التاريخ بتأثيرات النجوم كما فعل جان بودن ؛ وكذلك لم يكتف ابن خلدون برد عوامل التاريخ الى مشيئة الله كما فعل بوسسوئه ولا حاول اتخاذ التاريخ وسيلة لإثبات قدرة الله كما فعل فيكو ؛ مع انه كتب ما كتبه في هذا الصدد قبل أن جاء بودن بمدة تناهز القرنين ، وقبل بوسسوئه بمدة تزيد على ثلاثة قرون ، وقبل فيكو بمدة تقرب من ثلاثة قرون ونصف قرن (ص ٣٨) . ان ابن خلدون قد علل التاريخ تعليلاً عقلياً علمياً وبنى آراءه على مشاهداته واستقراءاته فكانت طرائق البحث التي اختارها وسلكها في هذا المضمار أكثر قرباً وأشد شبهاً باخطط العلمية الحالية من الطرائق التي اتبعها بعض المشاهير الأوروبيين الذين جاءوا بعده مثل بودن وبوسسوئه وفيكو (ص ٣٩) .

---

(١) القران وقوع كوكبين على خط نظر واحد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفيكو نفسه يبدو بالاضافة الى ابن خلدون ، كما قال الأستاذ الحصري في فصل آخر ، طفلاً صغيراً (راجع ص ١٨٣ وما بعدها) فقد كان في بعض الأحيان خيالياً الى أبعد درجات الخيال كما سنخف أحياناً أخرى في تعليلاته ، ذلك لأنه كان يريد أن يبرر شذوذ الملوك لا أن يعلل سير التاريخ (ص ١٩٣ س).

٢ً — المدخل الثاني : حول مؤلف المقدمة :

بعدئذ يتكلم الأستاذ الحصري على بيئة ابن خلدون وعلى حياته بالتفصيل (ص ٤١ — ١٠٨) وعلى ما في عصره من الاضطراب الشديد ومن تقهقر الحياة السياسية في الأندلس خاصة وفي المغرب ، ثم على ما نزل بابن خلدون من المصائب وما لقيه من المصاعب في أسفاره الكثيرة ، ويفرد الأستاذ الحصري في هذا القسم بحثاً لآثار ابن خلدون .

٣ً — القسم الأول : نظرات وملاحظات عامة (في المقدمة) :

يكشف الأستاذ الحصري في هذا الفصل عن أمر مهم جداً ، هو أن ابن خلدون كتب الجزء الأول من كتابه في التاريخ (المقدمة) « قبل أن جاء الى المشرق ؛ ثم انه نقح هذا الجزء « بعد » أن جاء الى المشرق . وينتهي الأستاذ الحصري الى القول بأن ابن خلدون قد زاد بعد رحلته الى المشرق نقولاً برمتها على « المقدمة » أو زاد أشياء في الفصول التي كان قد كتبها . ثم ان ابن خلدون كان يعلق ، على النسخة التي كانت بين يديه ، حواشيَ مختلفة . دخلت مع الزمن ، وعلى أيدي النساخ ، في متن المقدمة . أما النسخة القديمة فتعرف بالنسخة التونسية لأنها كتبها وهو لا يزال بالبلاد التونسية . وأما النسخة الجديدة فتعرف باسم الفاسية أو الفارسية لأنه كتبها بعد أربع عشرة سنة في مصر ثم أهداها الى مكتبة السلطان ابي فارس عنان سلطان فاس بمراكش .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي هذا القسم يدرس الأستاذ الحصري لغة المقدمة ويشير بحق الى أن الكلمات تتبدل معانيها مع الزمن . ولذلك يجب على دارس الكتب القديمة ان يتفطن الى المعاني التي كانت للكلمات يوم كتبت تلك الكتب . وبعد أن يستعرض الأستاذ الحصري عدداً من هذه الكلمات التي تقلب معناها مع الزمن يقف وقفة طويلة على كلمة «عرب» ويقول ان ابن خلدون حينما كان يقول «العرب» كان يعني البدو . ولقد أفاض الأستاذ الحصري في مناقشة الأدلة على رأيه هذا حتى جاء رأيه مقنعاً جداً . وهنالك دليل آخر غفل عنه الأستاذ الحصري ، هو ان ابن خلدون حينما كان يقول ان العرب اذا تغلبوا على بلاد أسرع اليها الخراب وأشباه ذلك كانت تراود خياله أفاعيل بني سُليم (بضم السين) بن مذحور وبني هلال بن عامر الذين هاجروا في القرن الخامس للهجرة من شبه جزيرة العرب (أو من مصر على الأصح بعد أن جاءوا اليها من شبه الجزيرة) الى المغرب وما نشأ بينهم وبين قبائل زناتة من الحروب وما جرى على أيديهم من الخراب .

٤ — القسم الثاني : مكانة ابن خلدون في تاريخ فلسفة التاريخ وفي علم الاجتماع

سبق ابن خلدون بمقدمته جميع فلاسفة التاريخ وجميع علماء الاجتماع . يريد المؤلفون الغربيون أن يجعلوا فيكو الايطالي (ت ١٧٤٤ م) مؤسس علم التاريخ مع أنه كان يؤمن بالسحر والخرافات ، ثم هو لم يتبع في (بحوثه) طريقة استقراء الحوادث ولم يتقيد في تفكيره بقيود الواقعات (ص ١٨٠ — ١٨٨ ، ١٨٩) بينما ابن خلدون الذي جاء قبل فيكو بنحو ثلاثة قرون ونصف قرن لم يؤمن بهذه الخرافات ولم يأخذ بالروايات التي لا يصدقها العقل ، ثم انه تفوق على فيكو تفوقاً كبيراً من حيث شمول النظر ونزعة التعمق وطريقة البحث والاستقراء ؛ وهو يقترب من طرائق (البحوث) العلمية الحديثة بوجه عام وطرائق (البحوث)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التاريخية والاجتماعية بوجه خاص اقترابا واضحا (ص ١٩٥ – ١٩٩) . من أجل ذلك كان ابن خلدون أجدر بلقب مؤسس علم التاريخ في رأي الباحثين (ص ٣٠٠) .

واذا نحن جئنا الى مونتسكيو (ت ١٧٥٥ م) رأينا بعض المؤلفين ينسبون اليه ابتكار نظرية « تأثير الأحوال الاقتصادية في الوقائع التاريخية » . والصواب أن ابن خلدون ربط بين الوقائع التاريخية وبين الأحوال الاقتصادية قبل مونتسكيو بثلاثة قرون ونصف قرن أيضا . ومع أن مونتسكيو يستحق مقاما ممتازا جدا في « تاريخ فلسفة التاريخ » بفضل المباحث التي كتبها عن الجباية والتجارة والنقود والنفوس ، فان التعميمات الخاطئة ، كثيرة عنده كثرة التعميمات الصائبة ، بينما معظم نظرياته الاقتصادية البحتة مليئة بالأغلاط ، وكان هو يشعر أن فيها تناقضا (ص ٢٠٥ — ٢٠٧) . ويجب أن نعلم أن ابن خلدون لم يسبق مونتسكيو الى « صلة الاقتصاد بالتاريخ » سبقا زمنيا فحسب ، بل فاقه أيضا في عمق التفكير ودقة النظر وحسن التعليل (٢٠٦ — ٢٢٠) .

وفي علم الاجتماع أيضا كان لابن خلدون فضل الابتكار والنبوغ والتفوق . ان الدعوى بأن أوغوست كونت هو مؤسس علم الاجتماع لا تثبت عند البحث والتدقيق . إن حق ابن خلدون بلقب « مؤسس علم الاجتماع » أقوى من حق كونت (ت ١٨٤٣ م) لأنه « درس الحادثات الاجتماعية » ثم تخيل علم الاجتماع علما مستقلا قائما بذاته ووضع له الأسس واستنتج منها النتائج واكتشف القوانين قبل أوغوست كونت بنحو أربعمائة عام . وبحوث ابن خلدون في « الاجتماع » لا تجعله مؤسس علم الاجتماع فقط ، بل ترفعه الى مصاف علماء الاجتماع الذين نبغوا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحاضر (ص ٢٣٥ — ٢٤١) .

ثم ان الأستاذ الحصري ينهي هذا الفصل برأي العالم تويني وهو : « إن ابن خلدون ، في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام ، قد أدرك وتصور وأنشأ فلسفة للتاريخ هي بلا شك أعظم عمل من نوعه خلقه أي عقل في زمان ومكان (ص ٢٦٠) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٥ ـ القسم الثالث : آراء ابن خلدون ونظرياته :

يقع هذا القسم في مائتين وتسعين صفحة ، ويصعب تلخيصه لأنه هو في الحقيقة تلخيص لمقدمة ابن خلدون كلها . إلا أنه لا بد من إثبات بعض الآراء والنظريات البارزة والخالدة في تاريخ العلم مما سبق ابنُ خلدون به أندادَه من فلاسفة التاريخ أو علماء الاجتماع .

ابن خلدون مؤسس علم التاريخ وموجد علم الاجتماع

(أ) موضوع التاريخ ومهمة المؤرخ :

يرى ابن خلدون أن حقيقة التاريخ إنما هي الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ... والتاريخ لا يتناول عند ابن خلدون أخبار الملوك ووصف الحروب فقط ، بل هو يتناول أيضاً كل ما حدث من التحول في الحياة الاجتماعية على اختلاف مظاهرها وفي المؤسسات الاجتماعية على اختلاف أنواعها . فالاقتصاد والصناعات والعلوم كلها تدخل في التاريخ . ثم ان مهمة المؤرخ ليست سرد أخبار الماضين ولا وصف أحوال الاجتماع فحسب ، بل في حقيقتها « تمحيص الأخبار لتمييز الحق من الباطل والصدق من الكذب فيها وللتأكد من مطابقتها للواقع ، ثم تعليل الوقائع لمعرفة كيفية حدوثها وأسباب تزاحمها وتعاقبها » . فابن خلدون في ذلك اذن « يتفوق بنظرته هذه على جميع المؤرخين الذين سبقوه في الشرق والغرب بوجه عام ، وعلى جميع الذين أتوا بعده خلال أربعة قرون على أقل تقدير » (ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(ب) طبيعة الاجتماع ومنشأ الحكم :

لاحظ ابن خلدون قبل علماء الاجتماع المعاصرين ان « الحوادث الاجتماعية » تجري بتقليد بعض الأفراد لبعض وللضغط أو القسر الحاصل في المجتمع على أفراده لحملهم على أن يسلكوا مسلكاً معيناً . ان الذين يستشعرون من أنفسهم الضعف أو الجهل أو التأخر يقلدون من هم أقوى منهم أو أعلمُ أو أوجهُ طوعاً أو انسياقاً ، حتى إن الجماعات الضعيفة تقلد جيرانها الأقوياء أو أعداءها المجاورين لها أو المتغلبين عليها (ص ٩٤ وما بعدها) .

(ج) التطور التدريجي في الطبيعة والمجتمعات :

يتبنى ابن خلدون رأي اخوان الصفا في « التطور الطبيعي للأحياء » ثم يوسعه قليلاً ويطبقه على المجتمعات ، فهو يرى بأن المجتمعات وان كان المتأخر منها يحرص على محاكاته المتقدمَ في أحواله ، فانها تتطور في الحقيقة تطوراً غير ملموح في أكثر الأحيان ولكنه مستمر . وهذا التبدل البطيء المستمر هو الذي يخلق المجتمعات المستجدة . على أن التبدل في المجتمعات يكون أحياناً تبدلاً كلياً مفاجئاً . ويلاحظ ابن خلدون عندئذ بأنه « اذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره كأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدَث (ص ٣٠١ وما بعدها) .

(د) طبائع الأمم وسجاياها (ص ٣٠٧ — ٣٢٢) :

لا ينكر ابن خلدون تأثير الوراثة العرقية في صفات الأقوام ، ولكنه يرى أنها أقل خطراً مما يظهر للوهلة الأولى وأضيق نطاقاً مما ظن الباحثون من قبل . حتى الصفاتُ التي تظهر مشتركةً بين الآباء والأولاد ليست كلها — فيما يتعلق بالانسان — عرقية ذلك لأن الأولاد يأخذون معظم صفاتهم من « احتكاكهم » بالذين ولدوهم وعايشوهم وخالطوهم . ومع ذلك فانه يجب علينا أن نفرق بين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الصفات التي تنتقل من الآباء الى الأبناء من طريق الدم وبين الصفات التي تنتقل من طريق المخالطة الاجتماعية . ثم ان الأعمال المعاشية (الزراعة ، التجارة ، النجارة ...) التي يقوم بها البشر تأثيراً كبيراً في نشوء صفاتهم . كل هذا ذكره ابن خلدون في مقدمته قبل أن يذكره العلماء الغربيون بأربعة قرون أو خمسة . والأمثلة التي يضربها ابن خلدون على ذلك كثيرة طريفة صائبة ، ولكن المجال هنا لا يتسع لذكرها .

(هـ) نظرية العصبية (ص ٣٣٣ — ٣٥٣) :

العصبية عند ابن خلدون هي « النُّصْرَةُ » على ذوي الأرحام أن يصيبهم هلكة أو ينزل بهم أذى . وتتولد العصبية من القرابة في الدرجة الأولى . وكلما كانت القرابة أدنى كانت العصبية الناشئة منها أقوى . ولذلك كانت العصبية في البدو أعظم خطراً من العصبية في الحضر لصفاء الانسان في البدو واختلاطها في الحضر . ولكن « حقيقة العصبية » أنها « الشعور » بوحدة النسب وبوحدة المصلحة ، اذ النسب في نفسه أمر وهمي ، وما نشأة العصبية وقوتها الا ثمرة للعشرة وطول الممارسة والصحبة بالمربى والرضاع وسائر أحوال الموت والحياة » .

والعصبية ضرورية لقيام الدول والانتصار في الحروب ولبقاء الملك وللقيام بالحركات المختلفة ، حتى الدعوة الدينية فانها لا تتم بلا عصبية ، فلو لم يُبعث محمد ﷺ في منعة من قومه وعصبية من آله لما انتشر الاسلام بمثل هذه السرعة . ثم ان الأوطان الكثيرة المصائب قلّ أن تستحكم فيها دولة أو تستقر طويلاً . والعصبية التي هي أساس نشوء الدول عند ابن خلدون هي غير العصبية التي هي الحمية الجاهلية والتفاخر بالأنساب والتشدق بالأفعال . فالأولى محمودة والأخرى مذمومة .

(يتبع) الدكتور عمر فروخ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net